الطرائف فى المتاحف

— ١ —

المتحف القبطى

﴿ وأثره في الفنون والصناعات ﴾

للاستاذ صبرى فريد

القنون والصناعات القبطية :

إن المتتبع لسير الفنون والصناعات المصرية ـ من بدء العهد الفرعونى حتى العصر العربى ليرى أن الفن انتقل وتدرج من طيبة فى صعيد مصر الى أثينا فى بلاد اليونان ، ومنها الى روما فى ايطاليا. ثم تحول وحل بالقسطنطينية. ثم رجع ببهائه وعظمته لمبدأه الأصلى فى وادى النيل . وفى هذه الرحلات والتجولات ثم التكيف مع مقتضيات سيادة تلك الدول التى بسطت نفوذها على هاتيك البلدان. تقاربت ألوان الفن بعضها من بعض. فأخذ الفن اليونانى من الفن الفرعونى القديم والرومانى من اليونانى . وعند مابشرت الديار المصرية على يد الرسول القديس مرقس، تحتم وجود فن جديد تبعاً لتطور الديانة المصرية من وثنية الى مسيحية وهكذا كان للديانات والاعتقادات تأثير قوى فى تغير وتطور الفنون ، إلا أن هذا التغير لم يحدث فجأة أو دفعة واحدة . بل أخذ يتسرب تدريجياً من الاسكندرية الى أقاصى الصعيد تبعاً لانتشار الديانة الجديدة . فبينما كان أهل الاسكندرية يعتنقون الديانة المسيحية كان أقاربهم فى طيبة (الأقصر) يقيمون التماثيل لآلهتهم الفرعونية الوثنية مثل (ايزيس وازوريس وحوريس) وغيرهم .

وكان يظن فى أول الأمر أنه من المتعذر أو المستحيل وجود فن قبطى مصرى مستقل إلا أن هذا الزعم بدده المسيو ماسبيرد — مدير عام مصلحة الآثار المصرية سابقاً — بما أوجده من أدلة كافية ، وبراهين ساطعة ، على ذاتية الفن القبطى بين الفنون الأخرى .

ولذلك أنشأ خصيصاً قاعتين فى المتحف المصرى بقصر النيل ، ليعرض فيهما ما أمكنه العثور عليه من الآثار القبطية المبعثره فى شتى الكنائس والمقابر والأديرة المصرية

ولم ينقض زمن الا وشعر الأقباط بضرورة ايجاد متحف يجمع ما أمكن من العاديات القبطية الى تكون نموذجاً وعنواناً لهذا الفن الجميل

ولئن حصرنا كلمتنا حول الفن إلا أنه لنا الأمل بأن تساعدنا الفرص للبحث الوافى عن كيفية ايجاد المتحف القبطى، والمساعى الكريمة التى بذلها نخبة من كبار الأدباء والوجهاء والعظماء المصريين ، وفى طليعتهم مرقص سميكه باشا — الذى يحرز القدح المعلى أيضا فى حفظ الكنائس القديمة الأثرية من الخراب والهدم، وجمع عادياتها لتكوين مجموعة صالحة كانت عماد المتحف الحاضر .

ومن أولى واجباتى الأدبية هى الشكر لحضرة صديقى الشاب الأثرى الضليع (الوديع) حنا الذى كان له الهمة المذكورة فى ترجمة ما نقلناه من النصوص والأدلة على مواضع البحث والتحقيق .

نعود الآن الى الفن فنقول . : ليس الفن القبطى الا وليد الفن الفرعونى القديم الذى تكيف حسب معتقدات الديانة المسيحية الجديدة، يدلنا على ذلك الأثر الواضح الذى نراه على تمشى الروح المصرية الفرعونية مع الروح القبطية المسيحية . فالزائر الى المتحف يرى مثلا فى قاعة الأحجار لوحاً من الحجر الجيرى وعليه السيد والعذراء (مريم) تحمل الطفل (السيد المسيح) بنفس الشكل والكيفية التى نراها على الألواح الفرعونية القديمة، التى تمثل الألاهة ايزيس تحمل ابنها حوريس . وكذلك نرى فى قاعة الأقمشة قطعة من النسيج وهى مستطيلة الشكل عليها رسم مدخل المعبد وعلامة (العنخ) اى مفتاح النيل ورمز الحياة عند الفراعنة وبداخله الحرفين الأولين (ك . ر)من كلمة(كريستوس) اليونانية التى تفيد معنى(المسيح).

وقد ظهر على الفن القبطى فى الثلاثة قرون الأولى للمسيح ، صحة التشابه بينه وبين الفن البيزنطى، إلا أن المدقق يعرف أن ذلك راجع الى تأثير الكنيسة المسيحية العامة على الكنيسة القبطية قبل انفصالها عنها .

وبعد أن افترقت الكنيسة القبطية عن الكنيسة العامة أخذ الفن القبطى يتحول من الظاهرة البيزنطية الى أصله الفرعونى القديم . وطالما نراه اليوم ماثلا أمامنا فى الأديرة والكنائس القديمة من أخشاب منقوشة وصور بديعة، يعيدان مظاهر الفن بأكملها فى جميع تطوراته . ولا يغب عن أذهاننا أن الفن القبطى نشأ أولا فى الأديرة القديمة ، حيث كان

الرهبان يشتغلون بمختلف الصناعات . فمنهم نجارون مهرة ، وناسخو الكتب ، وصانعو الجلود ،والنساجون والمصورون . . .

وكانت تعتبر هذه الأديرة كمدارس للمساكين فى القرى والبيئة المجاورة لذلك الدير .

المتحف : أما وقد انتهينا من كلمتنا الفنية ، فتعال بنا نلج المتحف لنتبين أهم كنوزه وأبدع آثاره مبتدئين من المكتبة التى هى فى مدخل المتحف .

المكتبة : تأسست المكتبة بناء على رغبة جلالة الملك فؤاد . عند زيارته المتحف سنة ٩٢٠ م وقد تبرع جلالته بخمسمائة جنيه . كانت نواة أولية أضيف لها مخطوطات الكنيسة المعلقة ومكتبة المرحوم ميخائيل بك شاروبيم التى توسط فى نقلها صاحب الهمة النماء الأستاذ توفيق اسكاروس . وتشتمل المكتبة على نوعين من المؤلفات أولها الكتب المخطوطة ، وثانيهما الكتب المطبوعة ، كلاهما نادر يتم عن مصر فى العصر المسيحى .

وقد بدأ الأقباط بالكتابة على الورق البردى ثم الرق (جلود الغزلان) ثم ورق الكتان العادى . ثم تدرجوا لاستعمال المواد المستعملة اليوم . وكانوا يكتبون بقلم الغاب ويركبون الحبر من أنواع من النباتات ، كالعفص ممزوجاً بالصمغ العربى والشاز القبرصى . وأما التلوين فقد استعملوا له الزرنيخ وغيره . وكانوا إذا أرادوا تسطير الورق عمدوا الى مسطرة خاصة ، مكونة من لوح من ورق الكرتون ، وعليه خيوط مشدودة ، فيضعون الورق المراد تسطيره ، تحت هذه الآلة . ثم يضغط عليها بسبابته على موازاة الخطوط ليظهر أثرها .

وكان الناسخ يختم كتابه — فى معظم الأحيان — بوضع تاريخ إتمام نسخه واسم المهتم به الذى صرف عليه من ماله . ويضيف الى ذلك لعنته على كل من يتجاسر على نقل هذه المخطوطات من وقفيتها بالبيع أو الهبة .

وتقسم المخطوطات بحسب اللغة المكتوبة بها الى ثلاثة أقسام رئيسية :

(١) كتب قبطية محضة ، وهى قليلة تختص بالصلاة الكنيسية .

(٢) كتب قبطية عربية وهى التى بدأت عند اضمحلال اللغة القبطية وحلول العربية مكانها رسمياً .

(٣) كتب عربية صرفة ومن أغرب ما يرى أن الأقباط عند بدئهم بتعلم اللغة

العربية ، كتبوها بحروف قبطية ، ليسهل عليهم النطق بها ، ومن ذلك مخطوط عثر عليه بأحد أديرة وادى النطرون ، نشره الأستاذ جورجى بك صبحى وهو محفوظ بالمكتبة .

أما المطبوعات : فهى الكتب التى طبعت باللغة القبطية وباللغات الأخرى. ومن الجدير بالذكر أن أحد هذه الكتب مطبوع باللغة الحبشية والانكليزية وهو منقول عن أوراق مخطوطة حبشية ، ترجع للقرن الخامس عشر ، كانت فى حيازة امبراطور اثيوبيا (ثيودوروس) والذى يستلفت بها النظر جمال الصور المزينة بالألوان الزاهية ، وتمثل تاريخ حياة القديسين الأحباش ، والصور مرسومة على الخط الحبشى القديم برءوس مستديرة ، وعيون جاحظة ، وشفاه غليظة ، ومعالم حبشية محضة لم يستثن منها رسم السيد المسيح وأمه العذراء .

وأنفس ما تحتوى عليه المكتبة من الكتب هو : كتاب البسخة (صلاة الجمعة الحزينة وأسبوع الآلام) المذهب ببعض الصفحات وفيه رسومات بديعة هندسية مكتوبة باللغة العربية والقبطية ، وهو من الورق ، ويرجع تاريخه الى سنة ١٣٤٢ للشهداء . ثم كتاب الأناجيل الأربعة ، وبعض أوراقه مصفحة بالذهب ، والألوان البديعة ، مع جمال النقوش والرسوم ، وهو من الورق ، يرجع تاريخه الى ستمائة سنة وعليه كتابات كوفية نصها : « الأنجيل الطاهر والمصباح الزاهر ، ينبوع الحياة وسفينة النجاة . . . » وكتاب (قطارس) مخطوط قبطى ، أصله فى الكنيسة المعلقة ، يرجع تاريخه الى القرن العاشر ، ويصح أن يكون نموذجا للخط القبطى ، ويكاد الرائى اليه يحسبه طبعاً لدقة خطه ، وتناسب حروفه .

ودولاب مخطوطات بعضها يجمع بين اللهجتين فى اللغة القبطية (الحيرية والصعيدية) .

ثم سجل انعامات للرهبان ، من قبل أحد خلفاء الدولة الفاطمية تاريخه سنة ٤١٥ هـ

وبالمكتبة أيضاً مجموعة من الفلاير يرى عليها نصوص كتابة قبطية تتضمن إيصالات واخطارات بتسليم مقادير من الغلال ، وبينها قطعة نفيسة عليها خطاب من أحد الرهبان لرئيسه يطلب منه ارسال بعض الأشياء

ثم بالمكتبة مجموعة من رقوق الغزال ، يرجع تاريخها الى ما بين القرنين العاشر والثانى عشر الميلادى ، وكلها مكتوبة باللغة القبطية ، تتضمن بعض أجزاء الكتاب المقدس

القاعات : فاذا انتهينا من المكتبة دخلنا قاعة الأحجار وهى على نوعين :

١ — أحجار مزخرفة ٢ — شواهد قبور

فالأحجار المزخرفة ، عبارة عن بقايا المبانى القبطية القديمة التى عثر على معظمها بجهة سقارة والأشمونين والفسطاط . أغلب هذه الأحجار جيرية ، منقوشة نقشاً بارزاً يمثل أوراق الكرم والغار شأن الفن البيزنطى . ثم التيجان العربية والكورنثيشية وقد عثر على معظمها فى الفسطاط .

أهم هذه الأحجار (حنايا أقواس) افريز لمداخل أبنية قبطية ، عليها زخارف بنائية وهندسية بديعة ، يرجع عهدها الى القرن السادس والسابع الميلادى ، على بعضها صور الحيوانات ، منها ماهو للزينة كالأسد والغزال والأرنب ، مما يدل على تأثير الفن الساسانى بالفن المصرى القديم ، ومنها ما كان مرسوماً برسوم ذات صبغة دينية ورمز مسيحى كالسمكة والحمامة ، فالأولى رمز السيد المسيح ، لأن اسمها باللغة اليونانية مكوناً من خمسة حروف هى (Ixote) تقابل أوائل خمس كلمات معناها (يسوع المسيح ابن الله المخلص) والحمامة رمز (روح القدس) . والعذراء .

وأما الشواهد فهى عبارة عن ألواح أغلبها من حجر الجير ، وأقلها من الرخام عليها نصوص جنائزية ، تشمل أدعية بطلب الرحمة ، على أنفس أولئك الأموات مع ذكر أسمائهم وصناعاتهم والجهات والأديرة التى عاشوا بها مع تاريخ وفاتهم . وترجع أهمية هذه الشواهد الى سببين رئيسيين :

أولهما : أنها ترشدنا لشدة علاقة الفن القبطى مع أصله الفن الفرعونى ، فالاشكال والصور المرسومة على هذه الشواهد بجانب النصوص ، ليست الا فرعونية ، فنجد مثلا على أحدها مدخل يعلوه طائر ، أوقرص الشمس المجنح أو العنخ (مفتاح النيل — رمز الحياة) وبجانب ذلك صلوات قبطية .

ثانيهما : أنها تعرفنا أسماء الأعلام القبطية ، وأسماء المدن والقرى الرئيسية فى العصر المسيحى ، والتى لازالت باقية حتى اليوم مثل (اسوان = سووز ، الفيوم — ايفيوم ، اسيوط = سيوط ، أبو تيج = أبو ثيك) وكان فى معظم الأحيان يرسم على الحجر شكل المتوفى ، وهو قائم للصلاة ، رافعاً يديه الى أعلى . ثم يبتدأ النص على الشواهد بكلمة «الله واحد» وقد وجد على شاهد نص أدعية قبطية بشكل رثاء ، هو ذات المعنى للرثاء الذى كان يستعمل

فى عهد الفراعنة وعلى بعض الشواهد حكم وأمثال ،ومن أهم الأحجار التاريخية لوح عليه صورة (مارى جرجس) داخل قرص الشمس المجنح ، وبجانبيه ثعبانان على الخط الفرعونى

قاعة الأخشاب :

وهى على ثلاثة أنواع : أخشاب محفورة حفراً غائراً أوبارزاً على الخشب

٢ — أخشاب مطعمة بالسن والصدف والأبنوس ٣ — أخشاب مخروطة . فى القاعات الأولى مجموعة من مصاريع الأبواب الخشبية ، وهى على نوعين الأول يشمل أبواب المنازل من الداخل ، وواجهاتها مكونة من حشوات مجمعة مع بعضها بدون مسامير أوخلافه ، وهى بهيئة صلبان ، وأصل هذه القاعة ، هو الاستفادة من القطع الخشبية الصغيرة . والنوع الثانى هو أبواب منافذ الطرق والأديرة مصفحة واجهاته بالحديد والمسامير الضخمة ، وأهمها باب كبير الحجم جىء به من دير أبى سيفين بمصر القديمة ، والأخشاب المخروطة هى قطع متريات عثر عليها بالبطريركية القديمة بحارة الروم ، وعليها نصوص ، ورسم قلل وأوانى المياه والصلبان.

أما الحفر البارز فيشمل مصاريع الأبواب ، وحشوات عليها صور القديس . ومناظر دينية أخرى ، أهمها لوح مستطيل عليه صورة دخول السيد المسيح الى مدينة أورشليم ممتطياً اتاناً وأمامه الرسل ، رافعى أغصان النخيل ، وفارشين أمامهم ثيابهم ، علامة حسن الاستقبال وهذا اللوح من خشب الجميز ، يعلوه نص باللغة اليونانية القديمة ، ينتهى بتاريخ صنع القطعة وهو ١٢ من شهر بؤنه من الأندكتس الثالث (الأندكتس وحدة زمنية مكونة من ١٥ سنة ابتدأ استعمالها من ٣١٢ ميلاديه) وعليه نصوص دينية ويعد من أحسن وأدق الأمثلة على صناعة النجارة عند الأقباط فى ذلك العصر ، وقد جىء به من واجهة كنيسة المعلقة الأثرية ، وهو فى الواقع أثمن وأفخر أثر بالمتحف ، ويليه فى الأهمية باب عثر عليه فى أثناء تجديد كنيسة الست برباره ، يرجع تاريخه الى نفس العصر ، وعليه حشوات مربعة بها رسم السيد المسيح والرسل ، بشكل بارز ، ويمتاز عن سواه بأنه منقوش من الواجهتين فى الثانية رسم أوراق الكرم منبعثة فى أجزائه ثمر العنب .

ويليهما فى الأهمية حجاب قديم ، جىء به من نفس الكنيسة عليه مناظر عربية فاطمية تمثل الصيد والقنص .

ومما تجب ملاحظته أن الأقباط فى جميع صناعاتهم الخشبية كانوا يستعملون أنواعاً من

الخشب ذات الرائحة الزكية، التى تساعد على طرد الحشرات كخشب الأرز ، ومن الأشجار التى تعتبر مقدسة هى (الزيتون) الذى كانوا يصنعون منه أدوات الكنائس والأبواب والأختام المعدة لختم القربان المقدس .

ومن أغرب وألطف الاعتقادات القبطية — حتى الأسلامية — هو تقديس شجرة الجميز ولهذه العقيدة أصل فرعونى قديم ، فقد كان الفراعنة الأقدمون يصنعون منه توابيت الموتى والتماثيل الصغيرة (٣٦٦) التى تدفن مع الميت لتقوم بأمور معيشته فى الحياة الأخرى . اعتقاداً منهم أن شجرة الجميز تعطى الحياة لنفسها ، لأنها تعيش مورقة مخضرة أمداً بعيداً دون أن يصل اليها الماء .

والأخشاب المطعمة تشتمل على مصاريع أبواب الهياكل ، وقد كان للأقباط طريقة خاصة فى تطعيم الأخشاب ، فكانوا يحضرون الحشوة الخشبية ويقرغونها ، ثم ينزلون فيها حشوة أخرى من السن منقوشة بشغل بارز ، ومن أعم الزخارف النباتية التى استعملوها هى زهرة اللوتس ، التى استعملها الأقباط فى القرن العاشر الميلادى رمزاً للسيدة العذراء — ولهذه الشارة بحث طويل فصلته فى احدى مقالاتى بمجلة مصر الحديثة .

وبالمتحف أيضاً مجموعة من الصناديق المعدة لحفظ الملابس الدينية فى الهياكل جىء بها من مختلف الأديرة والكنائس القبطية .

(يتبع) صبرى فريد

من حكم ابن المقفع

على العاقل أن لا يحزن على شىء فاته من الدنيا أو تولى ، وا[illegible]ا أصابه من ذلك ثم انقطع عنه منزلة ما لم يصب . وينزل ما طلب من ذلك ثم لم يدركه منزلة مالم يطلب . ولا يدع حظه من السرور بما أقبل منها ، ولا يبلغن ذلك سكراً ولا طغياناً . فان مع السكر النسيان ، ومع الطغيان التهاون ، ومن نسى وتهاون خسر .